الفكاهة والطرفة عند العرب

نماذج من بغداد

2-1

رفعت مرهون الصفار

تبوأت بغداد المركز الاول للحضارة العربية الإسلامية بين بقيه الحواضر، وقد أمها العلماء والادباء والفقهاء ومن متعاطي سائر العلوم، وراح كل يعمل في حمله، وأصبحت هذه المبادرات تنعكس شعراً ونثراً وعلوماً مختلفة، كما غزت الحضارة جميع أرجاء الدولة العباسية، وفي ظلال الزف الحضاري عم الرخاء والاستقرار والبذخ.. لذا نرى بغداد تتمتع بكل هذه الافانين الحضاريه وتزدهر بها لياليها ثقافة وعلماً وأدباً... وقد كان للفكاهة دورها في هذه الحياة..

الفكاهة في اللغة كما جاء في لسان العرب:

تقنى المزاح والرجل الفكه هو الطيب النفس والمزاح، يقال فكههم بملح الكلام أي أطرفهم والاسم الفكهيه (الفكاهة) والمرح والمزاح تعني الرعاية وهي تفيض الجد.

جاء في كتاب (زهر الربيع لما فيه من المقال البديع) لنعمة الله الجزائري: ان الأنبياء والأئمة ومن يليهم من علماء الدين وان كانوا على وقار النبوة ورزانة الإمامة؛ الا انهم كانوا يخالطون الناس ويطايبونهم ويتنزلون معهم الى قوله تعالى: (انك لعلى خلق عظيم).

لقد كان النبي(ص) والصحابة يضحكون ويفكهون، فقد كان النبي يبتسم حتى تبدو نواجذه، روى عنه ارحوا القلوب ساعة بعد ساعة فان القلوب اذا كلت عميت..

ولم يكتف(ص) بالاستئناس والمزاح، بل كان هو يمزح مزاحا يليق بجلال النبوة.. روى عنه قوله: (اني امزح ولا اقول الا الحق).

جاء في كتاب (زهر الربيع): انه (ص) كان يأكل رطباً مع ابن عمه امير المؤمنين علي (ع) وكان يضع النوى قدام علي فلما فرغا من الاكل كان النوى كله مجتمعاً عند علي فقال له: (يا علي انك لأكول)، فقال علي: (يا رسول الله الأكول من يأكل الرطب مع النوى).

أتته امرأة في حاجة لزوجها، فقال لها من زوجك؟ قالت فلان، فقال: الذي في عينه بياض؟ فقالت: لا، فقال: بلى، فانصرفت عجلى الى زوجها وجعلت تتأمل في عينه، فقال لها ماشانك؟ فقالت: اخبرني رسول الله ان في عينك بياضاً، فقال لها: اما تري بياض عيني اكثر من سوادها؟

روى عنه انه قال لصهيب بن سهيل: أتأكل التمر وبك رمد؟ فقال يارسول الله: انا امضغ على الناحية الاخرى.

جاء في نهاية الارب: ان عجوزاً انصارية أتت رسول الله(ص) وسألته ان يدعو الله تعالى لها بالجنة، فقال لها: اما علمت ان الجنة لا يدخلها العجز فصرخت فابتسم(ص) وقال: اما قرأت قوله تعالى:(انا انشاناهن إنشاء وجعلناهن ابكارا).

جاء في العقد الفريد ان الامام علي (ع) قال: اجمعوا هذه القلوب والتمسوا لها ظرف الحكمة فانها تمل كما تمل الابدان وان النفس مؤثرة للهوا اخذة بالهدينى طالبة للراحة فان اكرهتها انضبتها وان اهملتها اردينها.

عن الإمام الحسن(ع): ان هذه القلوب تحيا وتموت فاذا حيت فاحملوها على النافلة واذا ماتت فاحملوها على فريضة.

روى عن عبد الله بن عباس (رض) انه كان اذا فرغ من التدريس وروايه الاحداث يقول لتلاميذه: حمضونا فيخوضون عند ذلك في الاخبار والاشعار واللطائف.

روي عن عطاء بن السائب قال: كان سعيد بن جبير: لا يقص علينا الا ابكانا بوعظه ولا يقوم من مجلسنا حتى يضحكنا بمزحة.

وفي الاغاني: كان ابو الاسود الدؤلي وهومن الشعراء والمحدثين والفقهاء والفرسان والعلماء الدهاة وقد تولى العمل لعمر وعثمان وعلي، وتولى القضاة بالبصرة وهو الى ذلك كله كثير الدعابة حلو النادرة.

يقول الجاحظ في مقدمة كتاب البخلاء: ولك في هذا الكتاب ثلاثة اشياء تبين حجة طريفة اوحيلة لطيفة اواستفادة نادرة عجيبة، وأتت في ضحك منه اذا شئت وفي لهو اذا مللت الجد.

وسئل النخعي: أكل اصحاب رسول الله يضحكون ويمزحون فقال: نعم والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي، وربما عيب هذا النمط كل العيب وذلك الظلم لان النفس تحتاج الى البشر.

اما ابن قتيبة في مقدمة عيون الاخبار فيقول: وسينتهي كتابنا هذا الى باب المزاح والفكاهة.

وما روي عن الاشراف والائمة منهما، فاذا ما مر بك ايها المتزمت ما اردنا به فا علم انك ان كنت مستغنيا عنه منتسكا، فان غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج اليه، وان الكتاب لم يعمل لك من دون غيرك فيهيا على ظاهر محبتك، ولو وقع في تزق المتزمتين لذهب شطر بهائه ولاعرض عنه من احببنا ان يقبل اليه منك.

اما ابن عبد ربه فيقول في العقد الفريد: ان الفكاهات والملح نزهة النفوس وربيع القلوب ومرتع السمع ومجلب الراحه ومعدن السرور.

وقال أبو فراس الحمداني:

اروح النفس ببعض الهزل
تجاهلا مني بغير جهل
امزح فيه مزح اهل الفضل
والمزح أحيانا جلاء العقل

يتضح مما تقدم ان العرب كانوا يحبون المزاح ويطربون للفكاهة ويمدحون الهشاشة ويفخرون بالطلاقة والبشاشة، وان النبي(ص) وبعض العظماء من صحابته كانوا يمزحون ويضحكون ويناشدون الاشعار ويتمازحون، فاذا خاضوا في الدين انقلبت جماليتهم وصاروا في صورة اخرى، ولكننا نجد مع ذلك كلمات منسوبة لبعض حكماء العرب تنفر من المزاح وتبغض الفكاهة مثل: (المزاح يذهب المهابة ويورث الضغينة)، و(المزاح سبب النوكى «الحمقى») و(المزاح يوجب الشر صغيره والحرب كبيره)، وقول ابن المعتز (من كثر مزاحه لم يزل في استخفاف به وحقد عليه).. فكيف نوفق بين هذا وذاك؟

ليس تباين الآراء في المزاح او الفكاهة أمراً محالاً او منكراً لان الناس مختلفون في تقديرهم وحكمهم على الاشياء، وليس من الطبيعي ان يكون الناس كلهم ذوي صدور رحبة ونفوس منشرحة تهش للفكاهة وللضحك. فمنهم المنبسطون ومنهم المتعصبون، وفيهم الظرفاء وفيهم المتزمتون.

وهؤلاء هم الذين ذموا المزاح من طبقة المتزمتين الذين ارادوا الحياة عابسة او ارادتهم الحياة عابسين.. قد يكون بواعث سخطهم على الفكاهة وعلى الضحك انهم لم تكن لهم القدرة على التفكيه، فنقموا على المتفكهين او ان بعض المتفكهين.. اتخذوهم هدفا لهم فالموهم، ولقد يكون مرد ذلك الى ان هؤلاء وجدوا الفكاهة قد انحدرت في زمنهم الى درك يتنافى مع الكرامة والضحك البريء.

اما نهج الفكاهة السليم فهو ما قاله سعيد بن العاص لابنه (اقتصد في مزحك فالافراط به يذهب البهاء ويجريء عليك السفهاء، وتركه يقبض المؤانسين ويوحش المخالفين).

جاء في كتاب البخلاء (وللمزح موضع وله مقدار متى ما جاوزها احد وقصر عنهما احد صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً، الناس لم يعيبوا الضحك الا بقدر، ولقد أطلق العرب اسماء مثل: بسام وباسم وضحاك وطليق وطلق وبشار وبشير وبشر وجذلان، واذا مدحوا الرجل قالوا: ضحوك السن بسام العشيات، هاش للضيف.. واذا ذموه قالوا: عبوس، كالح، مكنهر الوجه شتيم المحيا، منقبض الوجه.

ويجب ان ندرك ان الفكاهة لا تستملح من كل شخص، انما تستملح من الشخص النكه الموهوب البارع في تصويرها والتعبير عنها وتمثيلها، وقد تحتاج النكتة الى البديهة المسعفة والجمل القصار والنكتة اللطيفة واللفظ الخفيف، ويعد العرب من بين شعوب العالم المحبين للفكاهة المتعلقين بالمزاح البرئ والنكتة اللطيفة ومنها:

١- خرج الخليفة المهدي وكان بصحبته على بن سليمان والشاعر أبي دلامة والحاشية وبينما خرجت سهام الصيد نحو الغزلان اصاب المهدي ضبيا في حين اصاب علي بن سليمان احد الكلاب فارداه قتيلاً وهنا التفت المهدي الى أبي دلامة قائلاً: الا يحضرك شيء؟ فارتجل أبو دلامة قائلاً:

قد رمى المهدي ضبيا
شق بالسهم فؤاده
وعلي بن سليمان
رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كل
امرء يأكل زاده

٢- كان أبو نواس خارجاً من دار الخلافة فتبعه الشاعر الرقاشي وقال له: ابشر أبا علي ان الخليفة قد ولاك هذه الساعة ولاية، قال: أبو نواس: وما هي ويلك؟ قال: ولاك القردة والخنازير، قال: أبو نواس اذن اسمع واطع.

٣- قال الاصمعي: أضفت إعرابياً فلما أكلنا قلت يا جارية: أطعمينا تيناً فنسيته وقلت للاعرابي بعد ساعة أتحسن شيئاً من القرآن؟ فقال نعم فقلت: اقرأ: فقرأ.. بسم الله الرحمن الرحيم والزيتون وطور سنين)، فقلت أين التين؟ قال: نسيته أنت وجاريتك.

٤- دخل أبو دلامة على المهدي وعنده جماعة من وجهاء القوم واعيان الدولة فقال له المهدي: والله ان لم تهج واحدا من في المجلس هذا لاقطعن لسانك فنظر أبو دلامة فتحير في امره وضل ينظر الى كل واحد فيغمزه بان عليه رضا قال أبو دلامة: فازددت حيرة فما رأيت اسلم من ان اهجو نفسي، فقلت:

الا ابلغ لديك أبا دلامة
فلست من الكرام ولا الكرامة
جمعت دمامة وجمعت لؤما
كذاك اللؤم تتبعه دمامة

٥- كان ابن الجوزي يعظ في بغداد فانجر كلامه في التصوف حتى انشدهذين البيتين:

أصبحت اذا مه النسيم على زهر
الرياض يكاد الوهم يؤلمني
من كل معنى لطيف احتسي قدحا
وكل ناطقه بالكون تطربني

فقال له احد الحاضرين: ياشيخ اذا كان الناطق حمارا؟

فقال له ابن الجوزي: أقول له يا حمار اسكت.

٦- قرع قوم على الجاحظ بابه فخرج صبي فسأله: ماذا يصنع؟ قال: هو يكذب على الله سألوه كيف؟ قال: نظر في المرآة، وقال: الحمد الله الذي خلقني على احسن صوره.

٧- شغف احد العلويين بجارية اسمها (صدقة) كانت مملوكة لبعض اهل اليسار وفي ليلة اشتد به الوله قصد دار مالكها وقال:

يا اهل هذي الطبقه
هل عندكم من شفقه
لسائل قد جاءكم
يطلب منكم صدقه

فأجابه التاجر:

يامن يريد الشفقه
بمهجه محترقه
جدك ياذا لم يبح
اخذك منا صدقه

٨- قال أبو دحية القاص: كان اسم الذئب الذي أكل يوسف (كذا) فقالوا له: ان يوسف لم يأكله الذئب، فقال: اذن فهذا اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف.

٩- ركب شيخ هرم عربة فقال للسائق: امشي ببطء لان هزات العربة تضربي، فقال السائق: لا تخف يا سيدي لانني سبق وان كنت سائق عربة نقل واعرف ما يحتاج اليه المتاع العتيق من المحافظة والصيانة من الكسر.

١٠- تخاصم بغداديان فقال احدهما: لو ضربتك ضربة لابلغتك الى المدينة، فقال له: فاردفها باخرى فداك ابي لعلي ارزق الحج على يديك.

الموروث في الشعر

الشامت

حسين الهلالي

شمتٌ – شماتاً وشماتةً بفلان– فرح ببليته، فهو شامت ج– شمّات، (الشامتة جمع شوامت، مؤنث الشامت)

يقال (بات بلية الشوامت)(أي بلية شديدة تشمت بها الشوامت) (وبات طوع الشوامت) أي كما احب من شمت به

والعرب تكره الشامت وتذمه ولها فيه كلام كثير في شعرها ونثرها الأدبي ومن شعرها كما قال الشاعر النابغة الذبياني:

فأرتاع من صوت الكلاب تبات له
طوع الشوامت من خوف صردِ

وقال ابن زيدون:

لا يهنيءُ الشامت المرتاح خاطره
اني معنىّ الأماني ضائع خطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة
ام الكسوف لغير الشمس والقمرِ

ثم قال: يرثي صَديقه الوزير القاضي ابي بكر بن ذكوان في قصيدة طويلة تعد من عيون الشعر، منها هذان البيتان اللذان يدلان على الشماتة

اعززْ بأنْ ينعاك نعي شماتة
للأوليأء المعشرِ الأقبالِ
فجعت رحى الإسلام منك بقطبها

ليت الحسود فداك فهو نعالُ

اما شعراء الشعر الشعبي فركزوا عليه كثيراً وأصبح الشامت عند المرأة العدو اللدود لها، فهي تعتبره مع الواشي والنمام اشد اعدائها وهي تحاربهم دائما في شعرها وفي حديثها مع النساء قالت احداهن:

دارمي
اهوايه ازامط بيك اهواية كلش
لنك وي الشمات بيدك تفلش

وقالت اخرى

يلخذت روحي وياك رد روحي ليه
خوفي من النمام يشتمت بيه

وقالت ثالثة

اصفح الراح ابراح وتغنه بالراح
خاف من اكون آه شماتي ترتاح

وقالت رابعة

طكني الدهر وجعيت اتذر برداي
خوفي من الشمات تتحسس ابجاي
ولا تشكو الى الأعداء ضيما
فأن شماتت الأعداء داء

قال الشاعر عبد الأمير الفتلاوي ابوذية:

مولد من بيت القريض هذا
تلوم امتيمك بهواك لاسا ل
بعد منهو الينشف الدمع لاسا ل
لاتشجي العدوك ضيم لاسا ل
تره داء الشماته ومهضمية

وله موال:

لي خلة لفكدهم حن الكلب وشلاي
والشامت لهجرهم لما سمع وشلاي
دمع البيابي صفه وتمت بهن وشلاي
معما وشيل ويروي اهل الملا لوطال
ريحان لزرع طريج لشملهم لوطال
يا شامتي بعدهن ريت العمر لاطال
راح المصكر وصجر عود انا وشلاي
عليهم آه شحن الكلب وشلاي
صفه دمعي وبكت بالعين وشلاي
اصجر عود يهل النظر وشلاي
ووالمصكر غده من بين اديه

وقال حسين الكربلائي:

ليلو من البيابي مطر هل هل
يصاحب دوك شوف البدر هل هل
الشامت يوم ساك الضعن هل هل
فرح واللي يريده صاربيه

وقال حسين الهلالي:

تكت ادماي ومسج وشل بيراح
زحفت اجهم ادور ذره بيراح
الشامت فوك راسي وكف بيراح
هز رمه بفرح وجهز عليه

وقال هاشم فليح:

مثل حني فصيل النوك ماحن
الك يلخلفت بالكلب ماحن
ردت بجفاك حتفي ايحين ماحن
تركني الونسة الشمات بيه

استذكارات

عالم الست وهيبة في السكك

جودت جالي

كانت أياما مشهودة تعلقت في الذاكرة كتعلق القرادة تحت ألية الكبش. منها نحكي، مع الضغط على الزمن والوقائع كالعادة حسب ماتسمح به المساحة والبراعة، أنه في وجبة العمل المسائية جاء الأمر النادر بالتوقف عن العمل. حضر مسؤول عريق طالما لوع الفنيين بأوامره ونواهيه أيام حمى التصنيع العسكري، ولم يكونوا قد خرجوا من تلك المحنة ألا منذ فترة لم ينسوا خلالها أن التوقف عن العمل ولو للحظات كان جريمة وطنية، فأذا ما تحامق الفني أو تذاكى وحدثته نفسه أن يختلس هنيهة من الراحة ولو للجلوس قرب ماكنة الخراطة لم يدر من أية جهة سيناله على قفاه أو فخذيه (كيبل) مراقبي الراحل حسين كامل. في ذلك المساء جمعهم المسؤول (الكبير) الذي عرفوه يستحوذ على المكافأت، أو أدسمها، ويترك الوجوه المزفتة المدهنة كوجوه الأيتام على موائد اللئام، وأقصد بهؤلاء اللئام (الحبربشية) الذين أذا جاءت فائدة للفنيين أبتلعوها، وكذلك يفعلون.

وقف أمامهم بعد تجميعهم، وقال:

– أسمعوا.. اليوم يصورون هنا. أذا شفت من واحد حركة مناه مناه تره مايلوم ألا نفسه!

هكذا بكل حزم وأيجاز دون توضيح أكثر أو تفسير أشمل تركهم ينظرون في وجوه بعضهم البعض يتساءلون ما الأمر. ما أن خرج من بوابة الورشة الشاهقة حتى أخرج فني مزكوم منديله بسرعة بعد أن صبر نفسه طوال وجود المسؤول. وضع المنديل على أنفه وأطلق الصوت الثاقب بحرقة وغيض. ألتفت زميل له يبدو أنه قد تحمل منه هذا كثيرا ولم يعد في القوس منزع:

– لك والله خبصتنه.. فيط فيط.. شجاك؟!

فأجابه المزكوم وهو ينظر الى الأرض ويهز رأسه:

– خليني أعبر عن معاناتي الله يخليك.. لا تقمعني.

عندما وصل فريق العمل وتوزع آحادا أو مجاميع يتناقشون ويشيرون بأيديهم كان الفنيون يراقبون الوجوه ويتتبعون أشارات الأيدي، ثم سألوا بحذر أحدهم ففهموا أن التصوير يخص مسلسلا عراقيا عنوانه (عالم الست وهيبة)، أسترد الفنيون بعض شجاعتهم حينما قدم شخص نفسه اليهم بطريقة المثقفين (النازكة) على أنه مخرج وأخذ يسألهم عن مآخذ الكهرباء وكيفية تشغيل المكائن لأصدار ضجيج عال وأيقافها من مصدر واحد، وكلف بنفس الأسلوب (النازك) أحد الفنيين بمهمة التشغيل والأيقاف عند أشارات أتفق معه عليها.

أقترب منهم رجل يحمل كيساً كبيراً على ظهره وسألهم أين الفرن فتطوع جمع ناف على العشرة الى حيث الفرن غير بعيد داخل السقيفة الواسعة المرتفعة نفسها، وهم يحفون به بأنظارهم ويرددون (مناه ستاد... مناه ستاد)، كان في غاية الحرج لهذا الفضول الذي يكاد يربكه.. تبين له أن المكان لايضم فرنا واحدا بل أفرانا وبعد أن تخلص من طوق الفضول وتلفت حوله أختار فرنا ألقى عنده الكيس وكم كانت دهشة الفنيين كبيرة عندما شاهدوا أحذية تنتثر من فتحة الكيس. كانت هذه الأحذية (ستوك) جلبت من معمل باتا لتحرق في فرن فيما يصورون مشهد القاء القتلة لأحد الأشخاص في فرن آخر لحرقه فيه. أنصرف الرجل جالب الأحذية الى مكان آخر.

تبادل الفنيون النظرات وتفحصوا الأحذية وقارنوها بأحذيتهم فخلصوا بعد عقد حلقة نقاشية سريعة وبصوت واطئ الى أن هذه الأحذية أفضل حالا بكثير من الأحذية التي يرتدونها.. استغلوا انشغال الفريق في الأعداد للتصوير على مبعدة، وبسرعة أخذ ينزع كل واحد حذاءه ويتناول زوجين كيفما أتفق وربما حصل واحد على قياسين مختلفين وآخر على شكلين أو فردتين كلاهما يسار أو يمين، لايهم.. مادام التبادل سيجري فيما بعد.

لم يبق أحد ألا وحصل على حذاء (ستوك)، وتقاطر آخرون من زملائهم نحوهم كأنهم شموا رائحة غنيمة ألا عدد أنفوا أن تمتد أيديهم الى أحذية حكم عليها بالحرق.. عاد جالب الأحذية فأنتحى الفنيون جانبا وهم يتوجسون خيفة. نظر الرجل الى الأحذية ثم الى الأقدام ورفع بصره نحو الوجوه التي طالعته بتكشيرة عريضة مسترضية، ربما فكر أن الأمر ليس مهما ما دامت الأحذية ستحرق في كل الأحوال. هز رأسه ومضى.

بدأ تصوير المشهد.. كم كانت خيبة الفنيين، الذين وقفوا على مبعدة قرب جدار السقيفة عند النوافذ بحيث يمكنهم رؤية ما يدور، حين اكتشفوا أن الممثل الممتلئ الذي بدا لهم في أدواره التي شاهدوها، وفي حضوره قبل التصوير، غاية في المرح والشطارة (خوافا) فعلا لأنه عندما وضعوه في الفرن وصاح المخرج (أكشن) وأنزلوا بابه آليا سحب قدميه خشية أن يسحقها الباب، فصاح المخرج (ستوب)، وطرب الفنيون السككيون لسماعهم (أكشن) و(ستوب) هاتين، نسي حتى الذي ارتدى منهم حذاء ضيقا الألم وأستحوذ الحدث على مشاعرهم.

أكد المخرج للممثل أن الباب بعيد عن قدميه، ولكنه أضطر الى أن يصيح (ستوب) مرة ثانية وثالثة فبرم الفنيون بالإعادة وتململوا يريدون معرفة ما سيحدث بعد ذلك. في المرة الرابعة لم يتمالكوا أنفسهم فصاح أحدهم قبل المخرج:

–ستوب!

وبدأت التعليقات:

– خربت اللقطة.. والله خربت!

– لك هذا والله ممثل فاگس؟

– أي بشرفي فاگس.. أمي تمثل أحسن منه!

أقترح واحد من فريق التصوير أنه من الأفضل أنزال الباب يدويا ليطمئن الممثل.

قرر المزكوم أن الأمر لم يعد يستحق التهيب عن التعبير عن معاناته فأطلق العنان للصوت الثاقب من دون أن يعبأ هذه المرة بوجود مسؤولين من الدائرة على مقربة جاءوا بدورهم للتفرج على التصوير ومن بينهم المسؤول إياه الذي كان يتغافل ويتصنع الابتسام، أخذ المشهد يوحي لبعض الفنيين بتطبيقات شيطانية في عالم الواقع فرمق المسؤول بطرف عينه وقال قاصدا أسماعه:

– أكو فد طلي ينراد واحد يحطه هالحطة ويشويه على كيفه!

أبتلع المقصود ريقه وشحبت ابتسامته وزم على شفتيه كأنه يقول في سره (بسيطة.. خل تخلص هاي!).